

صفحات من الدبلوماسية الإسلامية

السفارات الخلافية

والسلطانية

وعلائق الاسلام والنصرانية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وسنحاول أن نعرض في هذا الفصل الى طائفة من هذه السفارات الشهيرة التي نرد أخبارها أشتاتاً في تواريخ الشرق والغرب ، وسنرى فيها من أوجه التماثل أحياناً ، ومن أوجه التباين أحياناً أخرى ، ما يفسر لنا بعض العوامل التي كانت في تلك المصور محور العلاقات الدبلوماسية بين أمم الاسلام وأمم النصرانية ، ومبحث التجاذب السيامي بينهما

كانت الدولة الأموية دولة الفتح والانشاء ، فلم يتسع وقتها لتنظيم العلاقات الدبلوماسية السلمية ؛ وكانت تقف طوال عهدها من جارتها الكبرى - الدولة الرومانية الشرقية - موقف الخصومة والتربص ، فلا تقف في هذا العصر على كثير من أخبار السفارات التبادلية بين الدولتين ؛ ولكننا نجد بعد حوادث حصار قسطنطينية الأول وإخفاق الخلافة الأموية في مشروعها لاقتحام الدولة الشرقية (٥٨ هـ - ٦٧٨ م) سفراء الامبراطور قسطنطين الرابع يستقبلون في دمشق بحفاوة ليعقدوا مع الخليفة الأموي (معاوية) معاهدة الصلح التي ارتضى بها معاوية أن يؤدي الى الدولة الشرقية جزية سنوية متنوعة كانت على ضآلتها عنوان المهادنة والسلمة من جانب الخلافة . وفي خلافة سليمان بن عبد الملك تردد على دمشق رسل الدولة الشرقية ليقفوا على أمر الأهبة المائلة التي تنخذها الخلافة للسير الى قسطنطينية ومحاولة اقتحامها ككرة أخرى ، وعاد سفير الدولة الشرقية الى بلاط قسطنطينية يحمل عن أهبة الخلافة أروع الأخبار والروايات

ولما قامت الدولة العباسية وتوطدت أركانها ، وقامت في نفس الوقت دولة أموية جديدة في الأندلس ، كانت بغداد في الشرق ، وقرطبة في المغرب ، كلتاها قطباً للتجاذب السيامي بين الاسلام والنصرانية . وكانت مملكة الفرنج القوية قد قامت يومئذ في الطرف الآخر من أوربا لتتزعج أمم الغرب الى جانب الدولة الرومانية الشرقية ؛ فكان ذلك عاملاً جديداً في إذكاء التجاذب السيامي بين الشرق والغرب ؛ ومنذ خلافة المنصور ثاني خلفاء الدولة العباسية نرى مملكة الفرنج تحاول أن تأخذ بنصيبها في عقد الصلات السياسية مع زعيمة الاسلام في الشرق ، وفي اقامة التوازن السياسي في العالم الجديد ، ونرى ملك الفرنج يبين يمشي رسله الى عاصمة الاسلام الجديدة (بغداد) في سفارة الى المنصور . ويضع مؤرخو الفرنج تاريخ هذه السفارة في سنة

منذ نحو عام عرضت في الرسالة الى موضوع السفارات النبوية ؛ وتبادل السفارات بين الشرق والغرب في المصور الوسطى ، سواء من الاسلام الى الأمم النصرانية ، أو من هذه الى الدول الاسلامية ، من الموضوعات الهامة التي تشوق بتفاصيلها وما تلقيه من ضوء على علائق الشرق والغرب في عصور لم يكن الاسلام فيها سيد الشرق فقط ، بل كان يسام أيضاً بنصيب قوى في سيادة الغرب ذاته . وقد كان لهذه السفارات رسوم وقواعد تتفق مع صولة الاسلام وتلائم روح العصر ، وكان لها في بعض الأحيان أثر كبير في توجيه سياسة الاسلام نحو النصرانية ، أو سياسة النصرانية نحو الاسلام . وقد كانت ربح هذه السفارات تتجه بالأخص من الغرب الى الشرق في عصور القوة والمجد . ذلك لأنها كانت في الغالب ترمي الى التماس السلام والمهادنة أو تحقيق بعض المنح والمغانم من الاسلام القوى الظاهر ، ولكنها كانت في عصور الضعف والاضمحلال تتجه بالأخص من أمم الشرق الى أمم المغرب التي تتبوأ مقام الزعامة والنفوذ ، وتعمل لتوطيد سيادتها بالضرب والتفريق بين الدول الاسلامية المتنازعة ، كما كانت تفعل الدولة البيزنطية منذ انحلال الخلافة العباسية وتمزق سيادتها بين مختلف الدول والأمم التي قامت على أنقاضها ، وكما كانت تفعل اسبانيا النصرانية منذ انهيارت الخلافة الأموية القوية ، وانقسمت الأندلس الى إمارات الطوائف ، على أن هذه القاعدة لم تكن عامة ، وإعما كانت ظاهرة ملحوظة فقط ، فكثيراً ما كانت تعقد المعاهدات وتتبادل السفارات بين الدول الاسلامية القوية والدول النصرانية القوية تنظيماً للعلاقات والمصالح المشتركة بينهما

وتستطرد الرواية الفرنجية ؛ فذكر أن هذه العلاقات الودية بين بغداد وملكة الفرنج ، استمرت بعد وفاة الرشيد وشارلمان ؛ وأن المأمون ولد الرشيد بعث إلى « لويس » ولد شارلمان وملك الفرنج من بعده سفارة أخرى اتأكيد المودة والصداقة بينهما ؛ وتشير الرواية الفرنجية في ذلك الصدد إلى ما كان لنفوذ الرشيد قبل وفاته من التأثير في سياسة خوارج البحر المسلمين وإحجامهم عن مهاجمة الشواطئ الفرنجية والرومانية ، وإلى ما كتبه الباباليون الثالث إلى شارلمان بعد وفاة الرشيد من أنه إذا كان خوارج البحر المسلمين لا يحترمون بعد شواطئ الأمبراطورية الفرنجية ، فذلك لأن نفوذ الخليفة في نفوسهم قد ذهب بعد وفاته

ونستطيع أن رجع هذا التقرب بين بغداد وملكة الفرنج إلى بواعث سياسية لها قيمتها ؛ ذلك أن الدولة العباسية الفنية ما كادت تقوم على أنقاض الدولة الأموية في المشرق ، حتى بعثت الدولة الأموية في الأندلس من جديد على يد عبد الرحمن الأموي (الداخل) ، وأخذت في الاستقرار والتوطد ؛ وكان قيام هذه الدولة الجديدة في اسبانيا يثير في الخلافة العباسية وملكة الفرنج معاً جزعاً وخاوف جديدة ؛ أما الخلافة العباسية فلأنها كانت تعتقد أنها قد سحقت الدولة الأموية نهائياً واجتثت أصولها وفروعها فلن تقوم لها قاعة بعد في المشرق أو المغرب ؛ فلما استولى عبد الرحمن الأموي على الأندلس وأقام به ملك أسرته من جديد ، أخذت الدولة العباسية تخشى بحق أن تنازعها هذه الدولة الخبيصة زعامة الاسلام ، أو أن تبلغ من القوة مبلغاً يحلها على التفكير في مقارعتها ومناوئها والاغارة على أملاكها الأفريقية ؛ وأما مملكة الفرنج فقد كانت تخشى اجتماع كفة الأندلس بعد تفرقها مدى حين ، وهو تفرق مهد للفرنج استعادة الأراضي الاسلامية في غاليس واقتناح نهر أربونة آخر معقل للاسلام في فرنسا ؛ وقيام الدولة الاسلامية الجديدة في الأندلس موحدة الكلمة موطدة الدعائم يعرض مملكة الفرنج إلى خطر النزوات الاسلامية كره أخرى ؛ فكانت مملكة الفرنج ترقب قيام هذه الدولة بجزع ، وتلتبس الوسائل اسحقها قبل أن تستفحل وتغدو خطراً داهماً عليها ؛ ومن ثم كانت سياسة الفرنج في تشجيع جميع الزعماء الخوارج على عبد الرحمن الأموي ، والعمل على إضرام نار الحرب

٧٦٥ م (١٤٨ هـ) ، ونقول لنا الرواية إن السفراء الفرنجيين لبثوا مدى حين في بغداد وعادوا بعد ثلاثة أعوام إلى فرنسا يصحبهم رجل أو سفراء من قبل الخليفة إلى ملك الفرنج ، وزلوا بشفر مرسليليا ؛ فاستقبل ملك الفرنج سفراء الخليفة أحسن استقبال ، ودعاهم إلى تمضية الشتاء في مدينة منز التي كانت يومئذ منزل البلاط الفرنجي ، ثم دعاهم للتنزه والإقامة مدى حين في قصر « سلس » على ضفاف اللوار ؛ ثم عادوا بعد ذلك إلى بغداد بطريق مرسليليا أيضاً مثقلين بالتحف والهدايا . واستمرت هذه الصلاة السياسية بين الخلافة العباسية وملكة الفرنج عصراً ؛ وزادت أواصرها في عصر الرشيد قوة وثوقاً . وهنا نعطف بإيجاز على ذكر تلك السفارات الشهيرة التي تبادلها الرشيد ، وكارل الأكبر أو شارلمان امبراطور الفرنج ولديين ، والتي تنفرد بذكرها الروايات الفرنجية أيضاً ؛ فان هذه الروايات تقول لنا إن شارلمان جرياً على سياسة أبيه ، أرسل إلى الرشيد سفارة على رأسها يهودى يدعى اسحاق ليؤكد بينهما الصلات الودية ، ويسمى لدى الخليفة في نيسل بعض الامتيازات الخاصة بالنصارى والأماكن النصرانية المقدسة ، فأكرم الرشيد وفاة السفراء الفرنج وردهم إلى شارلمان بهدية نفحة منها فيل وخيمة عربية وساعة مائية وحرار وعطور شرقية وغيرها ، وبعث إلى ملك الفرنج سفراءه بتحياته وتأكيد صداقته . وقد سر شارلمان بنتائج سفارته الأولى ، فأوفد إلى الرشيد سفارة أخرى على رأسها مبعوثه اسحاق أيضاً ؛ وتبالغ الرواية الفرنجية في نتائج هذه المراسلات بين الرشيد وشارلمان ، فتقول إن الرشيد أرسل إلى ملك الفرنج مفاتيح الأماكن النصرانية المقدسة ، ومنحه حق رعايتها وحمايتها . وقد وقعت هذه السفارات على ما يظهر في أوائل عهد الرشيد بين سنتي ٧٨٦ و ٧٩٠ (١٧١ - ١٧٦ هـ) ؛ ولكن الرواية الفرنجية تؤرخ سفارة الخليفة إلى شارلمان بسنة ٨٠٠ هـ ، ولعلها رد الرشيد على السفارة الفرنجية الثانية . ويختلف البحث الحديث في أمر هذه السفارات والكتابات بين الرشيد وشارلمان ، فيؤيد البعض صحتها وينكرها البعض الآخر ، أما نحن فنرجح صحتها^(١)

(١) نجيل القارىء إلى البحث الذى كتبناه في هذا الموضوع في كتابنا «مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام» ص ١٣١ - ١٣٧ والمصادر المذكورة فيه - وراجع أيضاً :
Reinaud : Invasion des sarrazins en France p. 92 & 115 - 117
٤ . ٢٤

الأهلية في الأندلس ؛ وكان اقتحام شارلمان للبرنيه بتحريض الزعماء الخوارج ليحاول اقتتاح شمال الأندلس ؛ ومن ثم كانت هذه العلاقات والمراسلات الدبلوماسية التي تبادلها الخلافة العباسية مع مملكة الفرنج ، ولم تكن بلاريب بعيدة عن الفكرة المشتركة في التعاون على سحق الدولة الأموية الجديدة في الأندلس

وكانت ثمة فكرة مماثلة تحمل الدولة الأموية في الأندلس والدولة البيزنطية خصيصة الدولة العباسية ومناوئتها في الشرق على عقد التفاهم والصلات الودية ؛ فكانت بين أمراء بني أمية وقيصرة قسطنطينية مراسلات وسفارات سياسية هامة . ففي سنة ٨٣٦ م (٢٢٥ هـ) بعث الإمبراطور تيوفيلوس إلى عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس سفراء بهدية نفخة ورسالة يدعوهم فيها إلى التحالف ، ويرغبه في ملك أجداده بالشرق ؛ وكانت هذه المحاولة الدبلوماسية من جانب قيصر قسطنطينية على أثر اضطرام الخصومة والحرب بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية وبعث المأمون ثم المتصم في أراضيها . فرد عبد الرحمن ابن الحكم على القيصر بهدية نفخة وبعث اليه سفيره يحيى بن النزال ، وهو من كبار الدولة وفحول الشعراء فأحكم بينهما الصلة والتحالف . على أن علاقة الإمبراطور بساحب الأندلس لم تتمد المراسلة والمجاملة ، لأن خلفاء عبد الرحمن الداخل حافظوا على سياسته التي رسمها من الامتناع بالجزيرة والاقتصار على توطيد ملك بني أمية فيها ، حتى عمد الناصر إلى تغيير هذه السياسة والتدخل في شئون المغرب لظروف وحوادث عرضت يومئذ

ونعود إلى علائق الدولتين العباسية والبيزنطية ، تاج العلاقات بين الاسلام والنصرانية في تلك العصور ؛ ففي أواخر القرن الثامن كان على عرش قسطنطينية امرأة وافرة الذكاء والعزم هي الإمبراطورة إيريني زوج الإمبراطور ليون الرابع ، وكانت وصية على ولدها قسطنطين أثناء طفولته ؛ ولكنه لما كبر وحاول أن يقبض على زمام السلطة ، ناوأته وقاومته حتى ظفرت به ، وزجته إلى ظلام السجن بعد أن سملت عيناه بأمرها ؛ فانهز المسلمون فرصة هذه الاضطرابات وغزوا آسيا الصغرى مراراً حتى اقتربوا من البوسفور ، وقاد هارون (الرشيد) وهو يومئذ ولي عهد أبيه الهندى بنفسه معظم هذه الحملات ، فاضطرت إيريني إلى التماس الصلح ، وبعثت رسلها إلى هارون ، وهو بمسكر بجيشه على

مقربة من البوسفور ، تطلب الصلح والمهادنة ؛ فأجابها الرشيد إلى ما طلبت ، وعقدت بين الفريقين معاهدة تعهدت إيريني بمقتضاها أن تدفع إلى الخلافة جزية سنوية مقدارها سبعمائة ألف دينار ، وتبادل الرشيد والإمبراطورة بهذه المناسبة بعض الهدايا والتحف الملوكة (٧٨٢ م - ١٦٦ هـ) ، ولما تولى الرشيد الخلافة بعد أبيه ، كانت إيريني قد خلعت وجلس على عرش قسطنطينية نيكيفروس (ويسميه العرب نيقفور) كبير الخزائن ؛ فماكاد يجلس على العرش حتى يادر بإعلان الخصومة على الخلافة وبطلان معاهدة الصلح ، ورفض أداء الجزية والمطالبة بما أدى منها ؛ وتنفق البنا الرواية الغربية صورة الانذار الذي وجهه نيكيفروس على يد سفرائه إلى الرشيد وفيه يخاطب الرشيد بما يأتي : « من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البسوق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه اليها ، لكن ذلك لضعف النساء وحققهن ، فاذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها وافند نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا » ؛ وأتى سفراء الروم أمام عرش الرشيد حزمة من السيوف إشارة بإعلان الحرب ، فغضب الرشيد لهذه الجرأة أبما غضب ؛ وكتب بنفسه على ظهر كتاب ملك الروم ما يأتي : « من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ؛ أما بعد فقد فهمت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه والسلام » (١) ، وبادر الرشيد إلى غزوا آسيا الصغرى على رأس جيش ضخم ، فاجتاحها حتى هزقية (٨٠٦ م) فاضطرب نيكيفروس إلى طلب الصلح ، وأرسل إلى الرشيد سفارة على رأسها أسقف سينادا ، وعقدت بين الفريقين معاهدة جديدة ، يتعهد فيها القيصر باصلاح الحصون المخربة ، وبأن يدفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دينار ، وأن يدفع عن نفسه ثلاث قطع ذهبية من نوع خاص وثلاث أخرى عن ولده عنواناً لخضوعهما لأمر المؤمنين

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عثمان
الحامى

(١) وتورد الرواية العربية نصوماً أخرى لهذين الكتائب — راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٦١ — وصبح الأعشى ج ٦ ص ٤٥٧ — وتتل الرواية البيزنطية هذه الرواية ، ولكنها لا تؤيدها من عندها — راجع : Finlay : Byzantine Empire Ch. II — I